﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: 6 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذِكر التّوطئة بالقسَم إلى بيان المقصود تعريضًا بالمُكذّبين وتلويحًا بالعذاب

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة القَسَم بمجموعةٍ من الأزمان والمخلوقات الدّالّة على قدرةِ الله العليم الحكيم، وأشارت إلى ضرورة إعمال العقل في معرفة أثر القسَم بها، وكان ذلك كالتّوطئة للمقصود؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان المقصود، فذكر مجموعةً من الأحداث التي أنزلها الله تعالى على المُكذّبين، والجاحدين لربوبيّته، والمعاندين لأُلوهيّته، والمتربّصين برُسله، والمجاهرين بالكفر والعصيان، ليكون ذلك تعريضًا بكلِّ من سلك سبيلَهم، وأسهم في طريقهم، وحاد عن نهج الحقِّ، فهو انتقالٌ من ذِكر القَسَم إلى بيان مقصده، للامتثال باتِّباع المقصود، والإيمان الحقّ بالمعبود.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِرَمَ﴾: أصل الكلمة يدلُّ على نَضْدِ الشَّيْءِ إلَى الشَّيْءِ في ارْتِفاعٍ، ثُمَّ يَكونُ القياسُ في أعْلاهُ وأسْفَلِهِ واحِدًا، والأرْمَ مُلْتَقَى قَبائِلِ الرَّأْسِ، والإرَمُ حجارةٌ تُجمَع وتُنْصَب كَأنَّها رَجُلٌ قائِمٌ، تكونُ عَلَمًا في المفازة والأماكن التي لا أبنية فيها، وجمعه آرام. و﴿إِرَمَ﴾ في الآية إمّا أن يكون اسمًا لشخصٍ، وهو جَدُّ عادٍ، فتكون القبيلةُ قد سُمّيت باسمِه، وإمّا ان يكون اسمًا لبلدتِهم وأرضِهم التي كانوا

عليها[1]، وإمّا أن تكون الحضارة البائدة التي لم يُخلق مثلها في البلاد، فيما رفعته من أبنية وأعمدة.

2) ﴿ٱلْعِمَادِ﴾: أصل لفظ (عمد) يدلُّ على الاستقامة في الشّيءِ مُنْتَصِبًا أوْ مُمْتَدًّا، والعَمْدُ: قصدُ الشّيء والاستناد إليه. وعَمَدْتُ الشَّيْءَ: أسْنَدْتُهُ. وما يُستنَدُ إليه أو ما يُعتمَد هو العِمادُ، والعَمودُ مِنْ خَشَبٍ أوْ حَديدٍ، تعتمد عليه الخيمةُ، وجمعه عُمُدٌ أو عَمَدٌ. و﴿ٱلْعِمَادِ﴾ إمّا بمعنى أعمدة بيوتِهم، أي: ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد[2]، وإمّا للإشارة إلى طولِ قاماتِهم[3]، أي: على تشبيه قاماتِهم بالأعمدة للإشارة إلى شدّتِهم وقوّتهم، وكِلا المعنيين صالحٌ لغويًّا.

3) ﴿جَابُواْ﴾: يدلُّ لفظُ (جوب) في أصلِه على خَرْقِ الشّيءِ، يُقال: جابَ الصّخرة نقبَها، وجُبتُ الأرضَ جوبًا، أي: دخلتها وخرقتها، وهو على المجاز، والمعنى: قطعتها سيرًا، ومنه جوابُ الكلام لأنَّه يقطع السّؤال، وقد تكون الإجابة مأخوذةً من الصّخرة التي تقبل الجَوْب، أي: الخرق، فتكون على استعارة معنى القَبول، والجَوْب: الدِّرْع تلبَسه المرأة، وجيب القميص والدّرع الذي هو منفذ الرّأس. و﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾ بمعنى: نَقَبوا صخرَ الوادي الذي يكون بين الجبلين وقطعوها ونحتوها واتَّخذوا منها وفيها بيوتًا[4].

4) ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾: جمع (وتد) وهو عودٌ غليظٌ شيئًا، أسفلُه أدقُّ من أعلاه، يُدقُّ في الأرض لتشتدَّ به أطنابُ الخيمة وتثبت، وأصلُ (وَتَد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخ. ومنه وتَّد فلانٌ رِجلَه في الأرض: ثَبَّتَها[5]، ومنه كذلك: أوتاد الأرض: الجبال؛ لأنَّها تثبِّتُها، ومعنى ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ إمّا صاحب المباني العظيمة الثّابتة للدّلالة على العِزِّ والمَنَعَة، كما في وصفِ المَلِك القويّ بقولِهم: (في ظلِّ ملكٍ ثابت الأوتاد)، وإمّا صاحبُ القوَّةِ والجُموعِ الكثيرةِ من الجُندِ الَّذين يُقَوّونَ أمْرَه، ويَشُدّونَ مُلْكَه[6]، كما يُقَوّي الوَتدُ الشَّيءَ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 405، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 322، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 153 - 154.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 478.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 503، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 418.

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 526، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 343.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وتد).

(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 317، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 337.

5) ﴿فَصَبَّ﴾: يدور المعنى المِحوريّ للصّبِّ على إراقةِ المائِع وحدَرِه من أعلى إلى أسفل بقوّة أو دفع، ويلزمه التّجمّعُ والثّباتُ رسوخًا بقوّة[1]، يُقال: صَبَّهُ فانْصَبَّ، وصَبَبْتُهُ فتَصَبَّبَ، ومِنْ ذَلِكَ: صَبَبْتُ الماءَ أَصُبُّهُ صَبًّا. ويُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، فيُقالُ لِما انْحَدَرَ مِنَ الأَرْضِ: صَبَبٌ[2]، ومعنى ﴿فَصَبَّ﴾: أنزلَ بهم وحلَّ عليهم سوطَ عذابٍ بقوّة[3].

6) ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: الرَّصَد هو التّهيُّؤُ للشّيء والاستعدادُ له على جهةِ ترقّبه في طريقِه ومسلكِه، بحيثُ لا يفوته للأخذِ به وإصابتِه[4]، والإرصادُ: الانتظارُ. ورصَدت فلانًا أرصُدُه: إذا ترقّبتُه. ويلزمه الإعدادُ لمَن ينتظره، ولهذا قيل: أرصَدتُ لَهُ شَيْئًا أرْصده: أعددتُ لَهُ[5]. والمِرْصادُ: المكانُ الَّذي يَرْصُد بهِ الرّاصد، والمَرْصَدُ مثلُ المِرْصاد، وجمعه المَراصِد[6]. ومعنى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: لا يفوته شيءٌ من أعمال العباد، كما لا يفوت مَنْ بالمِرصادِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رقابةُ الله قبلَ إنزالِ العذاب بالمُكذّبين قائمةٌ على الرّحمة وإرخاء عنان الهداية

تُخبِرُ الآياتُ الكريمة عمّا أنزله اللّه بالطّاغين من العذاب في الأمم السّابقة ترهيبًا وتخويفًا للمُكذّبين من المخاطَبين؛ لئلّا ينزل بهم ما نزل بالأمم السّابقة، وتسليةً لرسوله ﷺ، أي: ألَمْ تَعلَم - يا محمَّدُ - كيفَ انتقمَ ربُّك من قبيلةِ عادٍ إرَمَ ذاتِ الأعمدة العالية، أو ذات الأجسام الرّفيعة العالية، التي لم يُخلَقْ ما يماثل أصحابَ هذه القبيلة في بطشهم وقوّتهم وطولِ قامتهم، ولا مثلُ بيوتِهم في

(1) الرّاغب، المفردات: (وجب)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صبب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صبب).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 410.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رصد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رصد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رصد).
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 508، والبغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 421.

سائر البلدان؟ وكيف انتَقَم الله كذلك مِن قَبيلةِ ثمودَ الَّذين شَقّوا الجِبالَ في واديهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا لهم؟ وكيف انتَقَم الله كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ المُلْك القويِّ وصاحبِ الجُندِ والجموع الغفيرة؟ هؤلاء المذكورون مِن عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلم والطّغيان، فأكثَروا في البِلادِ الفسادَ بكفرِهم وتجاوزِهم في عصيانِهم؛ فأنزَلَ رَبُّكَ عليهم عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا، إنَّ رَبَّك مُراقِبٌ لأعمالِ الطّاغين المُفسِدينَ في الدُّنيا، فهو يراهم ويسمعهم؛ فلا يفوتونه، وسيُهلِكُهم، ويعذّبهم يوم القيامة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ جوابِ القَسَمِ بين المقدَّر والمذكور:

يحتمل أن يكون جوابُ القَسَم محذوفًا دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ فما بعدَه، أي: دلَّ على أنَّ المُقسَمَ عليه من جنسِ ما فُعِلَ بهذه الأمم، وهو العذاب الدّالُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، فهَذِهِ العِبَرُ جُزْئيّاتٌ مِنْ مَضْمونِ جَوابِ القَسَمِ، فتقديرُ الجوابِ: ليَصُبَّنَّ ربُّكَ على مكذّبيك سَوطَ عذابٍ، كما صبَّ على عادٍ وثمودَ وفرعونَ، ومناسبةُ حذفِ الجواب تهويلُه وتعظيمه؛ لأنَّه لمّا لم يتعيَّن المُقسَم عليه ذهبَ الوَهمُ في تصوّر العذابِ كلَّ مذهبٍ، فكان أدخلَ في التّخويف والتّرهيب[2]. ففيه إيماءٌ إلى أنَّ عذابَهم لا يُطاق فيوصفَ.

إنـزالُ العـذابِ بـالمعـانـديـن سـنّـةٌ ماضيـةٌ إن تـحـقّـقـت شروطُها

ويحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ تمهيدًا للجواب، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[3]، فيكون تقديم أخبار الأمم الثّلاث على الجواب زيادةً في التَّشْويقِ إلَى تَلَقّي

(1) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 1200.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 152.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 747، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

الجواب، وإيذانًا بجنْسه مِنْ قَبْلِ ذِكْرِهِ؛ ليَحْصُلَ بَعْدَ ذِكْرِهِ مَزيدُ تَقَرُّرِهِ في الأذْهانِ[1]، وذكر أنَّ الله تعالى ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ للظّالمين سنّة، وشأن السّنن أن تنزل بالعذابِ إن تحقّقت فيهم شروطُها.

براعة الاستفهام بالهمزة بعد الاستفهام بأداة ﴿هَلْ﴾:

التّقريرُ المقترنُ بمعنًى آخر كالوعيدِ والتّهديدِ تُناسبه الهمزة

لمّا آثرَ النّظمُ الكريم الاستفهامَ في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ بأداة ﴿هَلْ﴾، وكان المراد به تقريرَ مضمونِ الجملة وتحقيقُها، آثر الاستفهامَ بالهمزة في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ بالهمزة على معنى التّقرير المقترنِ بالتّهديد للمعرَّضِ بهم، فهو ليس مجرّدَ تقرير، بل مقترنٌ بمعنًى آخر، أي: تقرير المعنى لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وتهديد المخاطَبين المُكذّبين؛ لِما فيه من تقرير رسول الله ﷺ واستشهادِه على مشاركة مكذّبيه ﷺ للأمم السّابقة في الطّغيان والفساد، وإنّما يُجمَع بين هَذَين الغَرَضين بالاستفهام بالهمزة دون (هَل).

بلاغة التّعريض بأسلوب الاستفهام:

الاستفهام المقصود به التّعريض أرسخُ في تقرير معناه من الخبر المجرّد

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقريريٌّ، فهو صالحٌ لأنواع طبقات المخاطَبين، من موقِنٍ لزيادةِ النّظرِ والتّدبّرِ، ومن غافلٍ لتنبيهِه من غفلتِه، ومن جاحِدٍ يُنكَر عليه إهمالُه للنّظر، وفيه تعريضٌ للمكذّبين لرسول الله ﷺ بتهديدهم وإنذارِهم بأن يصيبَهم مثلُ ما أصاب الأقوام الثّلاثة، والمعنى: قد علمتَ علمًا يقينيًّا كيفَ عذَّبَ ربُّكَ عادًا ونظائرَهُم[2].

دلالة دخول همزة الاستفهام على أداة النّفي:

الاستفهام إنكاريٌّ من حيثُ التّفصيلُ، وتقريريّ من حيثُ الجُملة

دلَّ دخولُ همزة الاستفهام على حرفِ النّفي (لَمْ) على الإنكارِ، فالاستفهام دخل على جملة منفيّة (لم تر كيف فعل ربك بعاد)، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154.

الاستفهام عن نفي علم المخاطَب بما وقع لعادٍ من العذاب الشّديد، وهذا النّفي وقع عليه الإنكار بالهمزة، فالاستفهام على هذا إنكاريٌّ من حيثُ تحليلُ تركيبِ الاستفهام، أمّا من حيثُ الجملةُ؛ فالاستفهام تقريريٌّ؛ لأنَّ المقصودَ تقرير عِلم المخاطَب بما حصل لعاد، وهذا ما يُفسِّر صنيعَ بعض المفسّرين بأن يحملوا الاستفهام على الإنكار، وبعضُهم الآخر على التقرير في نظائر هذه الآية.

نوع الرّؤية وفائدة التّعبير بها:

تنزيل أخبار السّابقين منزلةَ المشاهد المحسوس والاعتبار بآثارهم

الرّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ قلبيَّة علميَّة، وجاء التّعبير عن العِلم بمفردة الرّؤية تنزيلًا للعِلم منزلةَ الرّؤية بالعين في الوضوح والانكشاف والبيان؛ فيُفيد يقينيَّةَ العِلم لدى المخاطَب بما وقع؛ لأنَّ أخبار الأمم شائعة مضروبةٌ بها المُثُل، فكأنَّها مشاهدة، ويجوز أن تكون الرّؤيةُ بصريّةً، والمعنى: ألم ترَ آثارَ ما فعل ربّك بعاد، وتكون ﴿كَيْفَ﴾ اسمًا مجرَّدًا عن الاستفهام في محلّ نصبٍ على المفعوليّة لفعل الرّؤية البصريّة[1].

تعيين مرجع الخطاب ودلالتُه السّياقيّة:

تشريفُ المخاطَب وتسليته، وإيذانٌ برفعةِ قَدْرِه عند ربِّه

الخطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ وإن كان في الظّاهرِ خطابًا للنَّبيِّ ﷺ، ولكن المراد به العموم[2]، فيدخل فيه كلُّ من تتأتّى منه الرّؤية وعِلمُ ذلك، وسبب إيثار الخطاب للنّبيِّ ﷺ دون أن يُقال: (ألم تروا)، هو أنَّه لمّا كان الخطابُ دالًّا على قُربِ المخاطَب من المخاطِب وعنايته به، كان الخطاب على وجه الخصوص تسليةً للنّبيِّ ﷺ، وإيذانًا برفعةِ قَدْرِه وخَصوصيَّتِه عند ربِّه، فإيذاؤه وتكذيبه ﷺ منذرٌ بالعذاب لمن يُؤذيه ويُكذّبه، وفيه كذلك تطييب لخاطرِه ﷺ بهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 152، والخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

التّقرير، وتثبيتٌ له ووعده بالنّصر هو وأصحابه، وأنَّ الله سيُمهل الكافرين ولا يهملهم، وهو ليس بغافل عنهم.

دلالة ﴿كَيْفَ﴾ في سياق الاستفهام بالهمزة:

التّعجيبُ من قدرة الله في تعذيبِ السّابقين غرضٌ يسوقُ إلى الاعتبارِ

إن كانت الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ علميَّةً اقتضت مفعولَين، وتكون ﴿كَيْفَ﴾ استفهامًا معلِّقًا فعلَ الرّؤيةِ عن العمل في مفعولين، ويكون المقصود التّعجيبَ من رؤية حالِ فعلِ الله بعادٍ وثمودَ وفرعونَ.

وإن كانت الرّؤية بصريَّةً اقتضت مفعولًا واحدًا، وتكون ﴿كَيْفَ﴾ اسمًا مجرَّدًا عنِ الاستفهام، مُرادًا منها مجرَّدُ الكيفيَّة - أي: الحال - في محلِّ نصبٍ على المفعوليَّة لفعلِ الرّؤية البصريَّة[1]، فيكون المقصود تعديةَ الفعل إلى هذه الحال، برؤية آثار العذاب، ثُمَّ التّعجيب منه، فمآلُ التّوجيهين واحدٌ في التّعجيب من قدرة الله في تعذيب الأقوام المذكورين.

دلالة الاستفهام بأداة ﴿كَيْفَ﴾:

تعميمُ الحالةِ العجيبةِ من صَبِّ العذاب على السّابقين

أوثِر اسمُ الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ دون غيرِه من أسماء الاستفهام أو الأسماء الموصولة، فلم يقل: ألم ترَ ما فعلَ ربُّك أو ألم ترَ الذي فعلَ ربُّك؛ لِما يُفيده اسمُ الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ من الدّلالة على الحالِ، ويُقصَد بها هنا الدّلالة على حالةٍ عجيبةٍ يستحضِرُها من يعلم أحوالَ هذه الأمم أو يرى آثارَهم، فإنَّ النّاظر في الكيفيّة يقفُ على التّحقيق في وجوه الدّلالات على عِلمِ الله تعالى وقدرتِه وعظيم سطوتِه على مكذّبي رسلِه، وإعزازِه لرسلِه وأوليائِه. ولمّا كان اسم الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ على معنى العموم أفاد تعميمَ الحالة العجيبةِ من صبِّ العذاب عليهم، بمعنى: أنَّ كلَّ ما حلَّ بهم من العذاب ومن آثارِه يُتعجَّب منه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 317.

بلاغة استعمال مفردة ﴿فَعَلَ﴾ دون مقارباتها:

الإيماء إلى أنَّ التّعجيب يقع على عمومِ فعلِه بالسّابقين

لمّا عُلّق فعلُ الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ بالفعل في قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾، أفادَ أنَّ المقصود العنايةُ بالحالة العجيبة، لا بالذّوات الذين وقع عليهم العذابُ، وأوثِر التّعبيرُ بمفردة ﴿فَعَلَ﴾ دون ما يدلُّ على العذاب، فلم يقل: ألم ترَ كيف عاقبَ أو كيف عذّب؛ للإشارة إلى عموم فعلِه تعالى بالأقوام المذكورين، ممّا مَهَّدَ لنزول العذاب وكان مقدّمةً له، وممّا تلاه كذلك؛ فإنَّ مدلول لفظ ﴿فَعَلَ﴾ يعمُّ العذابَ النّازل وما مُهِّدَ له وما تلاه، فكلُّه فعلُ الله تعالى، فمدلولُ ﴿فَعَلَ﴾ يَعُمُّ أعمالًا كثيرةً لا يدلُّ عليها غيرُه. ولو قيل: ألم تر كيف عاقبَ أو عذّب، لكانتِ الرّؤيةُ مقصورةً على واقعة العذاب. والمقصود التّعجيبُ من عموم الحالة.

فائدة التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

ذِكر الرّبوبيّة لبيان نُصرة النّبيّ وتأييده، لا لذِكر العذاب وكيفيّته

لمّا كان الكلام في بيان ما وقع على المُكذّبين من العذاب، وما حلَّ بهم من سخط الله تعالى، كان الظّاهر أن يُعبّر بوصف الأُلوهيَّة؛ فيُقال: كيف فعل الله، لكنَّه عُدِلَ عن اسم الجلالة إلى التّعريف بوصف الرّبوبيَّة، فقال تعالى: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ فأضيفَ (رَبُّ) إلى ضمير المخاطَب؛ لِما في وصفِ الرّبوبيَّة من الإشعار بالولاية والتّأييد والنّصرة والعناية بالمضاف إليه، وأنَّ هذه الولايةَ لا تنقطعُ، ففيه إيماءٌ بالرّدِّ على المُكذّبين للنّبيِّ ﷺ، إيذانًا لهم بأنَّه تعالى قد خصَّه بإحسانٍ عظيم، وأنَّه متولّيه وناصرُه ومؤيّدُه على عدوّه، فذِكر الرّبوبيّةِ ليس لبيان العذاب، وإنَّما لبيان النّصرة والتّأييد، ومقتضى الرّبوبيّةِ تأييدُ أولياءِ الله بالنّصر، وتعذيبُ المعاندين.

إعزاز النّبيّ ﷺ وتشريفُه، وخصوصيّة إحسان الله إليه

دلالة إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

أُضيف لفظُ الرّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب في قولِه تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾ لإعزاز النّبيّ ﷺ وتشريفُه، والإشعار بخَصوصيَّة إحسانِه تعالى له ﷺ.

توجيه تخصيص المذكورين بالذّكر:

معرفةُ المخاطَبِ بواقع المتحدّث عنهم أقـوى في الأثر والتّأثر

ابتدأت الموعظةُ بذِكر عادٍ وثمود لشُهرة القبيلتَين بالقوّة وشدّةِ البأسِ بين من نزل عليهم القرآن والمخاطَبين به. والسّياق في بيان أنَّ قوَّة البأسِ لا تمنع من حلول العذاب ولا تقي منه، وذُكِرَ بعدَهما فرعونُ وقومُه الذين طغَوا في البلادِ لشُهرة رسالة موسى ﷺ إلى فرعون الطّاغي بينَ أهلِ الكتاب، وقد كانوا يُحدِّثون العربَ عنها، وبلادُ فرعونَ أيضًا متَّصلةٌ بأرضِ العرب[1].

نوع الباء ودلالتُها في قوله: ﴿بِعَادٍ﴾:

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِعَادٍ﴾ للملابسة، وهي تُفيد أنَّ عذابَه تعالى لعادٍ ونظائرِها كان على وجه ملابستِه لهم.

نُكتةُ التّعبير بـ(عادٍ) دون قوم هود:

اختيارُ دقائق التّعبير عن المُراد معذوقٌ بمقاصد السّياق

عادٌ هو ابن عاص بن إرَمَ بن سامِ بن نوحٍ ﷺ، فسُمّيت القبيلة باسمِه، وعليه الاستعمال القرآني، وإطلاق الأب على نسله مجازٌ شائع، حتّى ألحقَه بعضهم بالحقيقة[2]. وقد جاء التّعبير القرآنيُّ بذكر (عادٍ) ولم يقل: (بقوم هودٍ)؛ وذلك لأنَّ السّياق أراد لفت المخاطَبين إلى ما عُرفوا به من قوّة وشدّة وبطش، وما كانوا عليه من البنيان العالي، لا باعتبارهم قومِ هود، وقد اشتُهروا بوصفِ القوّة باسم القبيلة، ولو جاء التّعبير بقوم هود لكان النّظر إلى اعتبار تبليغ هودٍ رسالتَه إليهم وكونِه نبيًّا بينهم، وليس هو المرادُ كما دلَّ عليه سياق الحديث عن تعذيبهم لا عن دعوتهم، فالسّياق هاهنا متمحضٌ للحديث عن العذاب، لا للحديث عن العذاب والدّعوة، أو عن دعوتهم وهدايتهم فحسب.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 152، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 318.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 337.

نُكْتَةُ مجيء ﴿إِرَمَ﴾ تابعًا لـ(عادٍ):

(إرم) اسمٌ لحضارةِ عادٍ عظيمةِ الاتّساعِ، شاهقةِ البنيان

جاء لفظُ ﴿إِرَمَ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ من (عادٍ)[1]؛ و﴿إِرَمَ﴾ إمّا أن يكونَ اسمَ جدِّهم إرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ، وهوَ جَدُّ عادٍ؛ لأنَّ عادًا هو ابنُ عوصِ بنِ إرَمَ، فيكون قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ بتقدير: عادٍ سبطِ إرَمَ، وإمّا أن يكونَ اسمَ قبيلتِهم، فيكون بتقدير: عادٍ أهل إرَمَ، فعادٌ وإرَمُ اسمانِ لقبيلةِ عادٍ الأولى[2]، وجاء ﴿إِرَمَ﴾ لبيان المقصود من عادٍ، ولم يُسَق لمعرفةِ نسب عاد حتّى نشتغل بتعرُّفِه، وإنَّما سيقت الآيةُ للاتّعاظ والإرشاد؛ فالاشتغال بتعرُّفِ أنسابِهم وأحوالِهم والقَصصِ عنهمْ نوعٌ من التَّكَلُّفِ[3]، كما يحتمل أن يكون ﴿إِرَمَ﴾ اسمًا للحضارة التي بنتها قبيلة عادٍ، وعليها وقع العذاب، فلم يبقَ لها وجودٌ في الأرض، بعد أنِ اتّسعت رقعتُها وعظُم بطشُها.

دلالة تأنيث ﴿ذَاتِ﴾:

التّأنيث العائد على المذكّر لفظًا يُراد منه مؤنّثٌ تقديرًا

لمّا ذكر الله تعالى عادًا وبيَّن المُراد من (عادٍ) بقولِه: ﴿إِرَمَ﴾، جاءت الصّفة لبيان الوصف الذي اتّصفوا به ولازمهم في قولِه: ﴿ذَاتِ﴾، وجاءت الصّفة بصيغة التّأنيث؛ للإشارة إلى أنَّ المُراد القبيلةُ التي من نسلِ عادٍ، وأنَّ الذّمَّ والعذاب وقع عليهم. وأجاز أبو حيّان أن يكون المراد المدينةَ؛ على اعتبار أنَّه وصَفَ المدينةَ، وليس قبيلةَ عادٍ، أي: لأنَّه وصفَها بعدم وجودِ مماثلٍ لها في البلاد في قولِه: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[4]. ويكون جَعْلُ المدينةِ رميمًا، أي: إهلاكُها كنايةً عن جَعْلِهم كذلك[5].

---

(1) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 6/ 393، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 471، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 222.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 309، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 318.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 517.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 472.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 221.

دلالة إضافة ﴿ذَاتِ﴾ إلى ﴿ٱلْعِمَادِ﴾:

المشهورات التّاريخيّة أقرّها القرآنُ لتكون تذكيرًا وعبرةً للمخاطَبين

أُضيف لفظ ﴿ذَاتِ﴾ إلى العماد في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ ليكونَ تركيبًا تعريفيًّا خاصًّا بهم، فإذا أُطلِق التّركيب عُرِفوا به، فصار الوصف بمثابة النّسب؛ للإشعار باختصاصهم بالعِماد، على القول بأنّهم هم المقصودون بذلك لعِظَم الخِلْقة، أو على القول بأنّ مدينتَهم هي المقصودة بذلك لارتفاع بنيانها، ويُشْعِر التّركيب مع وقت النّزول بأنَّ هذا الوصفَ خاصٌّ بهم، يعلمُه العربُ المخاطَبون، ولا يخفى عليهم مقصودُ الكلام.

نُكْتةُ وصفِ عاد بـ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾:

التّلويح بقوّة عذابِ البطش لمن تفاخر بالبطش

وُصِفت (عاد) بقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لبيانِ ما اشْتُهروا به بين الأقوام السّابقة من الوصف بالقوّة والمَنَعةِ وظهورِ البنيانِ وعُلوِّه، وهذا الوصفُ هو عمدة المقصود من السّياق؛ لِما فيه من الإشارة إلى أنَّ قوّتَهم وجبروتَهم وشهرةَ قبيلتِهم بكونِها ذاتَ العِماد، لم تمنع عنهم نزولَ العذاب، ولمّا كان الخطابُ للنّبيِّ ﷺ تسليَةً له وتهديدًا للمُكذّبين من قريشٍ وغيرِهم، أفاد الوصفُ معنًى ثانيًا، وهو أنَّه تعالى قد أهلكَ قومًا هم أشدُّ من القوم الذين كذّبوك قوّةً، فما نفعتهم قوّتُهم ولا شدّتُهم ولا عمرانُهم من العذاب شيئًا، قالَ تَعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [مُحَمَّد: 13]، وقالَ: ﴿*أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافِر: 21][1]، فما بالُ هؤلاء الذين كذَّبوا نبيَّ الله محمَّدًا ﷺ لا يخافون مَقتَه وحلولَ النِّقمةِ بهم بتكذيبِهم رسولَه ﷺ، وليسوا بأكثرَ من أولئك في القوّة والبَطشِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 319.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 517.

بلاغة لفظِ ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الـجـمـعُ بين طـولِ الأبـدانِ وطـولِ البنيان هـو الأنـسـبُ في المـلازمـةِ بين الأمرَين

لفظُ ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ في الأصلِ: هو عودٌ غليظٌ طويلٌ يُقام عليه البيت، يُرْكَزُ في الأرضِ وتُقام عليه الخيمةُ أو القبَّة، وهو دِعامة البيت. وتركيبُ ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ إمّا أن يكون على طريق الاستعارة، بتشبيه قوّة القبيلة بالبيت ذاتِ العِماد، أو بتشبيه قاماتِهم بالأعمدة الطّويلة الثّابتة التي يَعْتَمِد عليها البيتُ؛ للإشارةِ إلى شدَّتِهم وقوَّتِهم ورِفعتِهم، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس. فعلى الوجهين معنى ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾: ذات القوّةِ والشّدّة، مستعارًا من قوّة الأعمدة وارتكازِ البيت عليها[1]، وإمّا أن يكونَ التّركيبُ على طريق الكناية؛ لأنَّ المتبادَر من العِماد البناءُ الرّفيع، أو رفعةُ القامة وقوّةُ القوم وشدّتهم، لا العودُ الغليظ أو الاسطوانةُ التي توضَع في وسط البيت[2]. ولا مانعَ من الحَمْل على كِلا المَعنَيين، من كونِ القومِ طِوالًا شدادًا، وكون أبنيتِهم رفيعةً عالية قويَّةً، والملازمة بينهما واضحة، فطولُ الأبدانِ ينشأ عنه طولُ البنيان.

مناسبةُ الوصف بالاسم الموصول:

توكيدُ الوصفِ بآخر، بيانٌ جَزْلٌ وتعريضٌ فخم

جاء التّعبير بالاسم الموصول المؤنّث ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وصفًا لـ(عادٍ) على معنى القبيلة أو المدينة، وغرضُ مجيء الصّفة بالاسم الموصولِ الإشعارُ بأنَّ جملة الصّلةِ معلومةُ الانتساب إليهم بما اشتُهروا به بين الأقوام السّابقة، وفي وصفِهم بهذا الوصف تقريرٌ لشِدّتهم وقوّتِهم، وفيه كذلك تعظيمُ ما كانوا عليه من الشِّدَّة ورِفعةِ البنيان وقوّة الشّأن، فهو وصفٌ كاشِفٌ بعد وصفٍ متقدِّم، لزيادة البيان في شأن ذاتِ الأبدان والبنيان، مع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 154.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 253، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 319.

التّعريض بالمُخاطَبين الذين لم يبلغوا ما بلغه أولئك من القوّة والعَتاد والعِناد.

نُكْتَة تقديم ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ على ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾:

التّمهيد بوصفٍ لبيانٍ آخرَ، تعريضًا بالمخاطَبين، وتمهيدًا لكبْت خُلُق المتكبّرين

آثَر النّظم الكريم تقديمَ صفة ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ على صفة ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ وذلك لأنَّ الصّفة الأولى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ كانت كالمهاد والتّوطئة للتي بعدَها، فجاءت الصّفة الثّانية كالمُبيِّن والموضّح والمُعيِّن للمقصودِ في الصّفة الأولى، فالعلاقةُ بينهما علاقةُ تمهيدٍ وقَصْد، أمّا التّمهيد فبما عُرفوا به بين الأُمم والعرب على وجه الخصوص، وأمّا المقصود فللنّصِّ على أنَّ المُخاطَبين لم يبلغوا ما بلغته عادٌ من القوّة والمَنَعة والشِّدّة، فأفادتِ الصّفةُ الثّانية تعريضًا بديعًا بالمخاطَبين؛ كي لا يلحقَهمُ الاغترارُ، ولا يَركبَهم متنُ الاستكبار، فيأتوا بحماقاتٍ لا قِبَل لهم بها، وبتُرهاتٍ لا يَقوون على دَفْعِ آثارها.

بلاغة التّعريض في إيثار النّفي على الإثبات:

نفيُ القوّة عن الجميع وإثباتُها لجهةٍ تعريضٌ بالسّامعين وتلميحٌ للمُخاطَبين

آثَر النّظمُ الكريم النّفيَ على الإثبات في قوله تعالى: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾، حيثُ عبّر عن قوّة عادٍ وشدّتهم وبَراعةِ بنيانِهم بنفي خَلْقِ المَثيل لهم في قوّتِهم، ونفيُ خَلْقِ المَثيل أبلغُ من إثبات قوّتِهم وشِدّتِهم؛ لإفادته انفرادَهم في نوعِ القوّة وشِدّتِها عن سائر النّاس في زمنِهم، ففيه إشعارٌ باستفرادِهم في القوّة في ذلك الزّمان، وتحكُّمِهم في غيرِهم، والانفرادُ بنوعِ القوّة يَدلُّ على سطوتِهم ورضوخِ غيرِهم لهم، والمعنى: مع انفرادِهم بالقوّة والسّطوة في زمانِهم، فإنَّهم لم يُفلتوا من العذاب، وعليه فالنّفيُ أدلُّ على التّعريض بالمخاطَبين من الإثبات، فإثباتُ القوّة لجهةٍ لا ينفي وجودَ أقوى منها عند غيرها.

تسليط الفعل على الحدث لا فاعله للإشعار بعدم الاهتمام بهم

غرض بناء فعل ﴿يُخْلَقْ﴾ للمفعول:

جاء التّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول ﴿يُخْلَقْ﴾؛ لتسليط الفعل

على الحدث دون إظهار الفاعل، وللإشعار بعدم الاهتمام بهم، وأنَّ قوّتَهم وشدّتهم لم يجعلوها نعمةً، بل كانت نقمةً عليهم.

نُكْتَةُ نفي خَلْق المثيل دون إثبات قوّة المخلوق:

الانفرادُ في النِّعم يقتضي مزيدَ شكرٍ عليها

آثَر النّظم الكريم نفيَ خَلْقِ المثيلِ الموازي لعادٍ في البلاد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾، أي: لم يخلقِ اللّه مثلَ عادٍ في البلاد في الأبدان، والتي أنتجت عالي العمران، ولم يأتِ بتعبيرٍ آخر يُثبت فيه قوّة المخلوق، كأن يُقال: التي لم يكن مثل قوّتها في البلاد؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ كلَّ ما هو موجود في الأرضِ من أنواع القوّة إنّما هو بخَلْقِ خالقٍ عالمٍ بهم، قادرٍ عليهم، فالانفرادُ في شيءٍ في هذا الكون لا يخرجُه من جنس كونِه مخلوقًا ضعيفًا، وأنَّ له خالقًا قادرًا عليه، فهو الذي أراد ذلك الخَلْق لعادٍ، ولم يُرده لغيرِهم، فبدلَ أن يشكروا نعمَه كفروا ربّهم، واغترّوا بأنفسهم، وفيه تعريضٌ بقريش التي لم يجعل اللّه لأحدٍ في العالمين مثلَ ما جعل لها من مجاورة البيت الحرام، وتحقيق الأمن من حيثُ يُتخطَّف النّاسُ من حولهم، وهذه لم تكن لأحدٍ، ومقتضى الانفراد في النّعم تحقيق مزيد شكرٍ عليها.

بلاغة ذِكر مفردةِ الخَلْق:

دلالة مفردة الخَلْق ظاهرةٌ في الأبدان ولازمةٌ في البنيان

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الخلق في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾، وذلك لبيان أنَّ خَلْق (عاد) منفردةً في أبدانها عن باقي البشر نعمةٌ أرادها اللّه تعالى لهم؛ ليعبدوه حقَّ العبادة، لكنَّهم آثروا الكفرَ على الشّكر، ولهذه المفردة دلالةٌ على أنَّ المراد بالخلق (عادٍ) أي: القبيلة، ولو كان المرادُ المدينةَ المفهومة من السّياق، أو الأعمدة، لَقال: التي لم يُعمَل مثلُها في البلاد، فلمّا ذكر الخَلق دلَّ على أنّ المراد الرّجال؛ لأنَّ الذّوات هي الموصوفة بالخَلقِ، وفي التّعبير بخَلْقِ ذواتِهم بوصفِ القوّة إشارةٌ إلى أنَّ القوّة التي في جسمِ الإنسان هي بخلقِ اللّه تعالى، فاللّه تعالى خالقُ الذّواتَ

والأوصافَ الفطريَّة والمكتسبة، وهذه دلالة ظاهرة، لكنّها لا تمنع بتاتًا من الدّلالة اللّازمة عنها، وهي آثار خَلْق الأبدان في رفع البنيان، وأنَّ نفيَ المثيل في الخلق باعتبار أصل الخلق وما أنتجوه من أبنية وعَمار ومُدن، ويُرشِّح هذه الدّلالة ذِكر ﴿ٱلْبِلَدِ﴾، ففيها إشارةٌ إلى قوّة بناء بلدِهم، لأنَّهم بالتّأكيد استثمروا قوّتَهم في بناء بلدِهم، فتكون هذه الآية مشعرةً بتاريخ التّمدّن في العالمِ القديم، وتُظهر أنَّ تمدُّنَ جنوبِ جزيرة العرب - وهو موضع بلاد عادٍ - أقدمُ من تمدُّنِ الفراعنة، فإنَّ ظاهر نفي المماثلة لخلقِها في البلاد يُؤذِن بأنَّ تمدّنهم كان أرقى من كلِّ تمدّنٍ كانَ قبلَه أو كان في زمنِه، فإن كان أوتاد فرعون في هذه السورة هي أهرام الفراعنة، وهي قبورهم، فلعلَّ ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَدِ﴾ هي شيءٌ أعجب صنعًا وأعظم هندسةً وأشدُّ قوّةً[1]، وثباتُ الأهرام دونَ آرام عاد؛ لأنّها لم تتعرّض لعذابٍ ربانيّ كما كان لعاد.

تعيين مرجع الضّمير ودلالته:

الضّمير في قوله تعالى: ﴿مِثْلُهَا﴾ إمّا أن يعود إلى (عادٍ) باعتبار القبيلة؛ لأنَّ الضّمير مؤنّث، أي: لم يُخلق مِثْلُ قبيلةِ عادٍ في البِلادِ في عِظَمِ الجُثَّةِ وطولِ القامة وشدَّة القوّة، ويحتمل أن يعود إلى المدينة على اعتبار أنَّ المراد من عادٍ المدينةُ أو البلدة، أي: لم يُخلَقْ مثلُ مدينة قوم عادٍ في البلاد في رفعةِ البنيانِ وقوّتِه وثباتِه[2]، أو أنَّ الضّمير يعود إلى ذات العماد، أي: لم يُخلق مِثْلُ تِلْكَ الأعمدة في البِلادِ ومثلُ بيوتِهم[3]، ولا مانع من اجتماع القولين، فشأنُ الأبدانِ الطّويلة رفعُ الأعمدة الشّاهقة، وتشييدُ المدنِ الواسعة.

البساطة في الأبدان تُعين على البسطة في البلدان

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 399.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 22/ 27، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 155.

(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 337، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 153 - 154.

معنى حرف الظّرفيّة:

التّعبيرُ بحرف الظّرفيّة في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ للإشارة إلى تمكّن قوتِهم وشدّتهم، ورسوخِ رفعة بنيانِهم وثباتِه، وفيه إشعار بظهور الأمر في عمومِ البلادِ وشهرتِهم به.

تمكّنُ قوتِهم وشدّتهم، ورسوخُ بنيانِهم وثباتِه

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ تحتمل أن تكون للاستغراق العرفيّ، فيكون المراد بلدان العرب وقبائلهم[1]، كما تحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد بلاد الأرضِ كلّها، واللّفظ يحتمله ولا مانعَ منه؛ لأنَّ البلاد المعمورة بساكنيها في ذلك الزّمان كانت قليلةً، والحُكم حكمٌ إلهيٌّ، وهو سبحانه العالمُ بما كان وبما يكون.

الاستغراق العرفيّ، أو الجنسُ محتملٌ سياقيّ

بلاغة التّعبير بمفردة ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾:

لمّا كان البلد هو المكان المحدود الذي يُتَّخَذُ للإقامة فيه[2]، فهو موطِنٌ للاجتماعِ فيه وتأثير أهله فيه، عُبّر بالبلاد دون الأرضِ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ بلدتَهم كانت مأهولةً عامرةً بساكنيها، يجتمع فيها أهلها، ممّا يشير إلى عمرانِ تلك البلدة وحضارتِها، كما أفاد التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أنَّ المراد نفيُ خَلْقِ مثيلٍ لهم في البلاد المعمورة بساكنيها، وهو المناسب لوصفِهم بالقوّة والشّدّة. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ البلاد تقوى بقوّة أهلِها وشدّتِهم ورفعتِهم. ولو قيل: لم يُخلَق مثلها في الأرضِ، لَما تحقّقت هذه المعاني.

قوّة الدّولة بقوّة أهلها وشدّتِهم ورفعتِهم

نوع الواو وفائدتها:

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ﴾ معطوفٌ على (عادٍ)، أي: ألم تر كيف فعلَ ربُّك بثمودَ؟ وعِلّة العطف بالواو الاشتراك في الجهة الجامعة بينهما، وهي شدّة القوّة وثبات ملكهم في البلاد.

اشتراك عادٍ وثمودَ بشدّة القوّة وثبات الملك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 319.
(2) الرّاغب، المفردات: (بلد).

نُكْتَة تقديم عادٍ على ثمود:

قصّة عادٍ أعجبُ وأشهر من قصّة ثمود

بدأتِ الآيات بذِكر قصَّة عادٍ؛ لأنَّ أمرَهم كان أعجبَ، فلم يُخلَق مثلهم في البلاد في مثل قوّتهم وعمرانِ بنيانِهم، فالبَدءُ كان بالأعجب والأقوى والأشهر في شدّته وبطشه.

نُكْتَة التّعبير بثمودَ دون (قوم صالح):

انتقاءُ أدقِّ الأوصاف مرتبطٌ بدلالة السّياق ومقاصد البيان

آثَر النَّظم الكريم التّعبير باسم القبيلة (ثَمودَ) ولم يقل: بقوم صالحٍ؛ وذلك لبيانِ ثمود باعتبارها قبيلةً واجهتِ العذاب بعد الكفر، لا باعتبار الدّعوة والهداية، هذا ما يدلُّ عليه السّياق، فالمقصود بيانُ وصفِ القوم بقوّتِهم وشدّتِهم، وأنَّ قوَّتَهم لم تمنع عنهم العذاب، فقد اشتُهروا بوصفِ القوّة باسم القبيلة، وليس باعتبار نبيّ اللّه صالحٍ ﷺ بينَهم، ولو جاء التّعبير بقوم صالحٍ لكان النّظر إلى اعتبار رسالة صالحٍ إليهم، وكونِه نبيًّا بينهم، وليس هذا هو المرادُ كما تقدَّم من دلالة السّياق.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

التّذكير واستحضار العِبرة من سرد الخبر هو مقصود البيان

جاء التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ صفةً لثمود؛ وذلك للإشعار بأنَّ مضمون جملة الصّلة معلومة الانتساب إليهم عندَ المخاطَبين، فالمخاطَبون من قريشٍ كانوا على علمٍ بما كان عليه قوم ثمودَ من القوّة، وقطعِ الصّخر، واتّخاذِه منازلَ لهم، فالوصف لا للتّعريف بل للتّنبيه والتّذكير واستحضار العبرة من سرد الخبر.

بلاغة اختلاف النّظم في التّعبير بالاسم الموصول:

تذكير الموصول لتأويله بالقوم وهو مذكّر

جاء التّعبيرُ بالاسم الموصول المُذكّر، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾ ولم يقل: التي جابت الصّخرَ، مثلما وصف عادًا في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا﴾؛ وذلك لأنَّه ذكر (ثَمودَ) على تأويل القوم، فجوبُ الصّخرِ وثقبُه عملٌ خاصٌّ لا يقدر عليه إلّا الرّجال

الأقوياء، فناسب تأويلُ (ثَمودَ) بلفظ القوم للإشارة إلى اجتماعِهم على القوّة والصّلابة.

بلاغة استعمال مفردة ﴿جَابُواْ﴾:

امـتـازت ثـمـودُ بـدقّـة النّـحـت وقـطـعِ الصّخر فهو قطعٌ بديع يُـترجِـم قُـدراتٍ استثنائيّة

جاء التّعبير بمُفردة ﴿جَابُواْ﴾ دون مقارباتها كقطعوا؛ لِما تُفيده المفردة من كونِهم قطعوا الصّخر وشقّوه؛ للإشارة إلى شدّة قوّتهم، وتمكّنِهم في النّحت، وبراعة هندستِهم في قطعِ الصخرِ ونحتِه في بناء المنازل، فلا يصلُ إليهم عدوٌّ ولا يلحق بهم مناوئٌ، فدلّت مفردة ﴿جَابُواْ﴾ على القطع وزيادة، فهو قطع ونحت دقيق، كما بيّنه قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشّعراء: 149]، وهناك علاقة بين الجَوب والجيب، فكلاهما قطعٌ يُحدِث شقًّا، فجَوبُ الصّخر قطعُهُ ليكون في داخله شقٌّ، والجيب في الدّرع والثّوب شقٌّ كذلك، يُدخل الإنسانُ منه أعضاءه، يُقال: "جَيَّبتُ القميص تجييبًا؛ جعلت له جَيبًا، والجَوبُ: قَطْعُكَ الشّيء كما يُجابُ الجَيب، يُقال: جَيبٌ مجوبٌ ومجوَّبٌ، وكل مُجوّفٍ وسطه فهو مجوبٌ. والجوب: دِرعٌ تلبسهُ المرأة"[1].

فائدة ذِكر ﴿ٱلصَّخْرَ﴾ دون الحجر:

تـصـويـر صفات ثمود من القوّة والمتانة والعناد والـصّـلابـة والمهارة

آثَر النّظم الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلصَّخْرَ﴾ دون الحجر؛ لأنَّه لمّا كان الكلام في بيان قوّة ثمود وشدّتهم، ناسبَ ذِكرُ الصّخر دونَ الحجارة، فقَطْعُ الصّخرِ ونَحْتُه أشدّ من قطعِ الحجر؛ فالصّخر هو الحجرُ العظيم الصُّلْب الثّابت[2]، وهو كتلة كبيرة ثابتة، والحَجر قطعة من الصّخر، والحجر يناله الصّغير والكبير على عكسِ الصّخرة التي تكون عظيمة ثابتةً، فقطعُ الصّخرِ ونقبُه ونحتُه ليُتّخذَ منه منازلَ فارهةً هي الصّفة التي ميّزت ثمودَ عن غيرِهم في

(1) الخليل، العين: (جيب).
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صخر).

الشّدّة وقوّة البطشِ وبراعة التّرتيب، كما أنَّ قَطْعَ الصّخر يُحافِظ على تماسك الجبل الصّخريّ في قوامه وتماسكه، بخلاف قَطْعِ الحجارة، فقد يُعرّض الجبلَ الحجريّ للتّفكّك، كما أنَّ اختيار لفظِ الصّخر يَدلُّ على حُسْن اختيارِهم وقوّةِ إرادتهم وشديد شكيمتهم في اختيار الجبال الصّخريّة الشّديدة القويّة الصّلبة، دون غيرها، فهم يُؤثِرون المَسلك الصّعبَ على اليسير السّهل، ليدومَ لهم الأمر، لكنّهم غفلوا عن الأمر الأعظم والشّأن الأفخم، وهو عبادة الله تعالى، فوقعوا في العذاب المُهْلك.

نوع الباء ودلالةُ اختيارها دون حرف (في):

اجتماعُ معنى الملابسةِ والظّرفيَّة أولى من الاكتفاء بأحدِهما دون الآخر

الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلْوَادِ﴾ متعلّق بفعل ﴿جَابُواْ﴾، أو هو حال من فاعل ﴿جَابُواْ﴾، أو من المفعول وهو ﴿ٱلصَّخْرَ﴾، والباء في ﴿بِٱلْوَادِ﴾ ظرفيّة بمعنى (في)[1]، والتّقدير: جابوا الصّخر في الوادي، وقد يُقال: ما دامت الباء ظرفيَّةً فلِمَ لم يقل: جابوا الصّخر في الوادي، ولِمَ عدلَ إلى الباء؟ وجوابُه: أنَّه ذكر الباء لتُفيد معنيين؛ الملابسة - وهو أصل معناها -، والظّرفية بمعنى (في)، وعلى وفقِ توجيه الجارّ والمجرور وتنوّع تعلّقِه يكون المعنى: الذين جابوا الصّخر حالَ كونِهم ملابسين للوادي، وساكنين فيه، أو الذين جابوا الصّخر حالَ كونِ جوبِهم الصّخر ملابسًا للوادي؛ ليفيدَ لزومًا أنَّهم ساكنون في الوادي الذي فيه الصّخر، فإمّا أن يكون المقصود الأوّل وبالذّات كون جوبِهم في الوادي، أو كونِهم هم في الوادي، أو كون الصّخر في الوادي، والمعاني متلازمة، والوجه الأوّل أولى وأظهر.

وادي القرى معهود للمخاطَبين يعرفونه خبرًا ومشاهدةً

معنى تعريف لفظ ﴿بِٱلْوَادِ﴾:

تعريف لفظ (الوادِ) للعهد، فهو الوادي الذي كان يسكنُه قومُ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.

ثمود، وهو وادي القُرَى[1]، وهو وادٍ بينَ الشّام والمدينةِ، يقع على وجه التّحديد بينَ تيماءَ وخيبرَ، فيه قرًى كثيرةٌ، وبها سُمّيَ وادي القُرى؛ لأنَّ الواديَ من أوّله إلى آخره قُرًى منظومةٌ، وكانت قديمًا منازلَ ثمودَ وعادٍ، وبها أهلكهم اللّه[2].

فائدة العطف بالواو ومناسبتها:

عُطِف (فِرْعَوْنَ) على (عادٍ)، وتقدير الكلام: ألم تر كيف فعلَ ربُّك بفرعونَ، ومناسبة العطف بالواو الاشتراكُ في الجهة الجامعة بينهما، وهي شدّة قوّتهم وكفرهم باللّه.

الاشتراك بين فرعونَ وعادٍ بشدّة القوّة والكفر باللّه تعالى

دلالة ذِكر اسم (فِرْعَوْنَ) دون ذِكر قومِه:

المُراد بقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ فرعونُ موسى[3]، ولم يذكرِ القرآنُ اسمَ قوم فرعون، كما ذكر عادًا وثمودَ؛ لأنَّ فرعون من الأعاجم، ولم يكن الأعاجمُ يُسمّون أقوامَهم وقبائلَهم بأسماء أعلامٍ لهم، كما كان العربُ يفعلون؛ لاهتمامِ العرب بالأنساب وحفظِها، كما أنَّه لم يقل: (وقوم فرعونَ)؛ للإشعار بأنَّ فرعونَ هو أصلُ الطّغيان ورأسُه، وأنَّه سببُ كفرِ قومِه وتكذيبِهم لرسلِه عليهم الصّلاة والسّلام، فقام فرعونُ مقامَ القوم كلِّهم، ولبيان تنوّع الأمم في الكفر، ففرعونُ مثّل اتّجاهَ الكفرِ القائم على الحاكم، وعادٌ وثمودَ مثّلا اتّجاه الكفرِ القائم على القبيلة، وشأنُ الحاكم أن يظلم ويطغى، وليس بالضّرورة أن يطغى أهلُ بلدِه، بخلاف القبائل؛ فكُفْرُ القبيلةِ طاغٍ طام، ولذلك لحق العذابُ الأقوامَ، ولم يلحقِ الدّولَ، فعذّب اللّه عادًا وثمودَ، ولم يُعَذّب أهلَ مصر، بل أغرق فرعون وجندَه معه.

كُفْرُ الجميعِ مُلْحِقٌ بالعذاب الماحق، وكُفرُ الحاكمِ يُحيط به العذاب المبين

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 504، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 337، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310.

(2) ياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 4/ 338.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 479.

نُكْتَة إضافةِ ﴿ذِى﴾ إلى ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾:

شدَّة الاشتهار بشيءٍ تُلحِق صاحبَه به إلحاقًا عَلَميًّا

أضيف لفظُ ﴿ذِى﴾ إلى ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ لأنَّ صيغة (ذي) التي هي من الأسماء السّتّة أبلغُ في لزوم الوصفِ من لفظ (صاحب)، وتدلُّ على أنَّ المضاف قد اشتُهر بالمضاف إليه، حتَّى صار بمثابة العَلَم عليه، ففي الإضافة في قوله: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ إشعارٌ باشتهارِه بهذا الوصف، ولزومِه له حتَّى صار وصفًا مبيّنًا موضِّحًا له، وخاصًّا به.

فائدةُ تعريف لفظ ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ وجمعُها:

كثرة الأوتاد المستعملة في تثبيت البُيوت والخيَم

(أل) في ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ للجنس، للإشارة إلى الأوتاد التي يستعملها من يقصد تثبيتَ بيتِه وخيمتِه، وجاء اللّفظ بصيغة الجمع؛ للإيماء إلى كثرتِها، ومع أنَّ لفظ (أوْتادِ) على صيغة جمع القِلَّة (أفعال)، لكنَّه بدخول (أل) الجنسيَّة عليه صار مفيدًا للكثرة البالغة.

بلاغة الاستعارة:

المُلْكُ كالبيت يثبت بثبات أركانه وقواعدِه

يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ جاءَ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، بتشبيه قوّة مُلكِ فرعونَ وثباتِه بثباتِ البيتِ الضّاربِ أوتادُه في الأرضِ، فاستُعير اللّفظ لإثباتِ العِزِّ والمُلكِ، ففيها إيماءٌ إلى ظَنِّ فرعونَ بأنَّ قوَّته لا تُقهر ومُلْكُه لا يَزول، وبيان أنَّ مُلكَه بلغَ ما بلغ من الثّبات والقهر، ومع ذلك فكان عاقبتُه معروفةً للأراذل قبلَ الأفاضل، وفي الاستعارة ما يشير إلى قوّة مُلكِه وتفخيمِه، ليكون الزّجرُ بما أخبر اللّه به من إهلاكِه مع قوّة أمرِه أبلغَ وأكثر عبرةً للطّاغين من بعدِه.

ويحتمل أن يكون المقصود بقوله: ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ الأهراماتِ الموجودةَ في مملكتِه التي بناها أسلافُه، فكانت أشبهَ بالجبال، التي هي أوتادُ الأرض، كما أنَّ صورةَ الهرمِ تُشبهُ الوتدَ المَدقوقَ[1]، فيكون تشبيهَ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 16/ 1553، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.

الأهرامِ بالجبال، وتشبيهَ الجبال بالأوتاد، ويحصل من هذا تشبيهُ الأهرامِ بالأوتاد التي أُطلقت على الجبال إطلاقًا أشبه الحقيقة لكثرة التّشبيه، فساوى الحقيقةَ من حيثُ إلحاقُ المُشبّهِ به، وهذا من بديع الاستعارةِ التّصريحيّة.

بلاغة الكناية:

كما يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ كنايةً عن تثبيت مُلكِ فرعونَ وقوّتِه وشدّتِه، بكثرة مضاربِ عساكرِه وجنودِه الذين كانوا يضربون أوتادَها إذا نزلوا، فإنَّ كثرة الأوتادِ تدلُّ لزومًا على كثرةِ المضارب، وكثرةُ المضارب تدلُّ لزومًا على الجموعِ الغفيرةِ من الجنود الضّاربين البيوتَ في الأرضِ، الحامينَ مُلكَه؛ أهبَةً واستعدادًا لكلِّ طارئٍ، وكثرةُ الجنودِ المتأهّبةِ تدلُّ على قوّة المُلك وثباتِه.

الجنود والعسكرُ يشدّونَ المُلْكَ كما تَشُدُّ الأوتادُ الخيامَ وتثبّتُها

ويمكن توجيهُ الكنايةِ بتوجيهٍ آخر بأن يقال: إنَّه وصفَه بـ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي ذي الجنود الكثيرة، كنايةً عن قوّة مُلكِه وثباتِه؛ لأنَّ الجنود يَشُدّونَ المُلكَ كما تَشُدُّ الأوتادُ الخيامَ[1]، أو يكون اللّفظُ كنايةً عن الأبنية العالية العظيمة[2].

وأجاز بعضُ المُفسّرين أنَّه وُصِفَ بـ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ لكثرةِ تعذيبِه بالأوتاد[3]، إذ كان يوثِقُ بها من يُعذِّبُه، فيَدُقُّ أربعةَ أوتادٍ ويَشُدُّ بها من يُعَذِّبه مطروحًا على الأرضِ، فاشتُهر بهذا الوصف ولزمَه، وعلى هذا تكون الأوتادُ محمولةً على الحقيقة.

عِلّة استعمال الاسم الموصول:

جيء بالصّفة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾؛ لبيان عِلّة ذَمّهم وعقابهم بعد ذلك، والتّسجيلِ عليهم بوقوع هذه الأفعال القبيحة منهم.

(1) القنوجيّ، التّبيان في مقاصد القرآن: 15/ 224.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 478.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310.

الموقع الإعرابيّ للموصول، وأثرُه في بيان الارتباط السّياقيّ:

يحتمل أن يكون الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفةً لجميع من تقدَّم ذكرُهم، ليصفَهم بوصفٍ جامعٍ لهم[1]، أي: الأمم السّابقة المُعذَّبة من عادٍ وثمودَ وفرعونَ، هم الذين طَغَوا في البلاد.

يحتمل أن تكون الأمم أو فرعون وحدَه

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةً لـ(فِرْعَوْنَ) وحدَه، واكتفى بذِكرِ فرعونَ وأتباعِه عن ذِكرِ عادٍ وثمودَ[2]، وهذا على جَعْلِ الاسمِ الموصول صفةً في محلّ جرّ.

ويحتمل أن يكون منصوبًا على الذّمِّ لجميع من ذُكرَ[3]؛ لكونه صريحًا في الذَّمِّ، والمقامُ مقامُ الذَّمِّ وتقبيحِ الفعلِ.

ويحتمل أن يكون مرفوعًا على تقدير: هم الذين طَغَوا، إشارةً لجميع من ذُكِر من الأقوام الثّلاثة.

فائدة ذِكر الطّغيان دون الظّلم:

الطّغيانُ ظُلمٌ وزيادة لبلوغه الحَدَّ والغاية

أوثِرَ ذِكرُ الطّغيان في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، ولم يقل: الذين ظلموا في البلاد؛ لأنَّ السّياقَ في بيان قوّتِهم وجبروتِهم ومجاوزتِهم الحَدَّ، بمعنى أنَّ طغيانَهم لم يمنع من إنزال العذاب وصبِّه عليهم، ولمّا كان لكلِّ قومٍ طغيان خاصٌّ بهم، ووقع الاشتراك في تكذيب رسلِهم عليهم الصّلاة والسّلام، كان في وصفِهم بوصفٍ جامعٍ لهم إشارةٌ إلى أنَّ تكذيبَ الرّسول من الطّغيان الموجِب للعذاب، والطّغيانُ ظلمٌ وزيادة، فالظّلم يصدق على القليل والكثير، أمّا الطّغيانُ فهو الظّلم الكثيرُ الذي تجاوز الحدَّ، وبلغ الغاية.

تعيين مرجعِ الضّمير في ﴿طَغَوۡاْ﴾:

الضّمير في ﴿طَغَوۡاْ﴾ يرجع إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310.
(2) العُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1286.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 49.

والظّاهر أن يكون عائدًا إلى جميع من تقدَّم ذكرُهم، ويحتمل أن يكون عائدًا على فرعون وحدَه كما سبق بيانه.

دلالة التّعبير بحرف الظّرفيّة:

أفاد حرفُ الظّرفيَّة في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ الانتشارَ والاتّساع، أي: أنَّ طغيانَ تلك الأمم قد تغلغل، وأصبحت البلاد كالوعاء لطغيانِهم؛ فلم يسلم أحدٌ من طغيانهم.

انتشارُ طغيانهم واتّساعُه

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ وجمعُها:

عُرِّف لفظُ ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ للعهدِ، أي: طغت كلُّ أمَّةٍ في بلادِها خاصَّةً، وجمع ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ للإشعارِ بطغيانِهم في عمومِ البلادِ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّ الطّغيان يعمُّ ويستغرق البلادَ، فطغيانُهم قد أوقعَ البلادَ كلّها في الفساد؛ لأنَّ فسادَ البعضِ آيلٌ إلى فسادِ الجميعِ بسَنِّ سُنَنِ السّوءِ[1]، فالبلاد يصدق على جميعِ البلاد المأهولة بالحياة، فبدلَ أن تكون في عبادة اللّه تعالى، جعلوها في الظّلم والشّرك وتجاوز كلِّ حدّ.

فسادُ البعضِ آيلٌ إلى فسادِ الجميعِ بسَنِّ سُنَنِ السّوءِ

نوع الفاء ودلالتّها في ﴿فَأَكۡثَرُواْ﴾:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ سببيَّة[2]، وتُفيد ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: أنَّ الطّغيان هو سببُ إكثارِ الفساد في البلاد، وإنّما كان الإكثارُ في الفساد مسبَّبًا عن الطّغيان ومرتّبًا عليه؛ لأنَّ الطّغيانَ يُجَرِّئُ صاحبَه على دَحْضِ حقوقِ النّاسِ، فهو من جهةٍ يكونُ قدوةَ سوءٍ لأمثالِه ومَلَئِه، فكلُّ واحدٍ منهم يطغى عَلَى مَنْ هوَ دونَهُ، وذَلِكَ فسادٌ عَظيمٌ[3].

الفسادُ نتيجةُ الطّغيان، أو هو الطّغيان نفسُه

وتحتمل أن تكون الفاءُ تفسيرًا لطغيانِهم وتفصيلًا له[4]، أي: طَغَوا في البلاد مفسدين فيها، فطغيانُهم فسادٌ منتشرٌ بين النّاس.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 225.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 321.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 505، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 154، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 255.

براعة التّعبير بالإكثار من الفساد دونَ الإفساد:

جاء التّعبير في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ بذِكر الإكثار من الفساد، ولم يقل: (فأفسدوا فيها)؛ وذلك لبيان أنَّ الفساد جاء على مرحلتين؛ المرحلة الأولى: هي نشرُ الفساد ليكون توطِئةً للمرحلة الثّانية، ثمّ تأتي المرحلة الثّانيةُ: وهي الإكثار من الفساد، ولا يكون الإكثارُ من الفساد إلّا بعدَ الفساد، كما يُفيد تنوّعَ فسادِهم مع كثرتِه، فكأنَّه وصفَهم بالإفساد مرّتين مبالغةً في إفسادِهم المُسبَّبِ عن طغيانِهم، وهو ما يدلُّ على أنَّ الفساد في المرحلة الأولى هو الذي نادى على الطّغيان، فلمّا طَغَوا بعد أن أفسدوا أكثروا الإفسادَ في الأرض، وهو ما يدلُّ على أنَّ نشر الفسادِ في الأرض لا يكون عبرَ مرحلةٍ واحدة، بل على مراحلَ متعددةٍ، وهو ما يقود إلى أخذ الحيطة والحَذر من الفساد ابتداءً، وإن قلَّ في أعين النّاظرين.

الـفـسـاد يـأتي عـلى مرحلتين؛ التّمهيديّة التي تصنع الطّغيان، ثـمّ الإكـثـار من الفساد

دلالةُ حرفِ الظّرفيّة:

أفاد حرفُ الظّرفيَّة (في) أنَّ البلاد صارت ظرفًا ووعاءً لفسادِهم واستوعبَها؛ للإشارة إلى تغلغلِ فسادِهم في البلادِ وكثرتِه.

تـغـلـغـلُ فـسـادِهـم في البلادِ وكثرتُه

غرض تقديم الجارّ والمجرور على المفعول:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ للاهتمامِ لا للتّخصيص؛ لأنَّ فسادَ بلدٍ يسري منه الفسادُ إلى البلاد المجاورة له، وهكذا إلى أن يَعمَّ الفسادُ، فأفاد تقديمُ الجارِّ والمجرورِ أنَّهم كانوا حريصين على الإكثار من الفساد في البلادِ؛ لتكون البلادُ واقعةً في سهام الإفساد، مع ما في التّقديم من رعاية الفاصلة.

بـيـان عـنـايـةِ المُـفـسـدِ بنشر الفساد في البلاد وبين العباد

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ للجنسِ، فيستغرق اللّفظُ جميعَ أنواعِ الفسادِ، ويدخل في لفظ ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ الكفرُ باللّه وتكذيبُ رسلِه عليهم الصّلاة والسّلام دخولًا أوّليًّا.

توجيهُ تخصيصِ الفساد بالذِّكر دونَ الكفر:

الفساد في الآية لفظٌ يَعمُّ الكفرَ والمعصية والظّلمَ والفِسق

خصَّ النّظمُ الكريم لفظَ الفساد في الذّكر في قولِه تعالى: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ دون ذِكر الكفر؛ وذلك للإشارة إلى انتفاء استقامة العيش في البلاد بسببِهم؛ لأنَّ الفساد يدلُّ على خروج الشّيء عن الاعتدال، وانتفاءِ الاستقامةِ في النّفسِ والبدنِ والأحوال[1]. ولمّا كان الفَسادُ ضِدَّ الصَّلاحِ، وكان الصَّلاحُ متناوِلًا جَميعَ أقْسامِ البرِّ، كان الفسادُ متناوِلًا جميعَ أقْسامِ المعصية، وأشدُّها الكفرُ والظُّلمُ، فمن كفرَ باللّه وكذّب رسلَه وعمل بغير ما أمرَ اللّه تعالى، وحكمَ في عبادِه بالظّلم فهو مفسِدٌ[2]؛ فيكون المقصودُ بالفسادِ هاهنا عمومَ ما يحول بين النّاس والحقّ، فالفسادُ لفظٌ أعمُّ من الكفر والظّلم والفِسق والمعصية، إذ يشملها كلَّها.

نوع الفاء ودلالتُها في ﴿فَصَبَّ﴾:

إكثارُ الفساد في البلاد كان سببًا في صبِّ العذاب عليهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ﴾ تُفيد التّعقيبَ والسّببيَّة؛ لِتفيدَ ترتّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، بمعنى أنَّ إكثارَهم الفساد في البلاد كان سببًا في صبِّ العذاب عليهم.

بلاغة استعمال مفردة (صَبَّ):

المفاجأة بالعذاب طعمٌ من العذاب ولونٌ من الهلاك

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الصّبِّ في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾؛ للإيذانِ بمفاجأتِهم بالعذاب وهلاكِهم به، والمفاجأةُ بالعذاب نوعٌ من العذاب؛ فإنَّ العذابَ الذي أصاب هؤلاء القومَ كان عذابًا مفاجئًا قاضيًا، فأمّا عادٌ، فرأوا ريحًا عارضًا فحسبوه ريحًا يسبق المطر، فما لبثوا حتَّى أهلكتهم الرّيح وقضت عليهم، وأمّا ثمودُ فأخذتهم الصّيحةُ، وأمّا فرعونُ فحسبوا البحرَ منحسرًا فما راعَهم إلّا وقد أحاطَ بهم، فغرقوا هالكين[3].

(1) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

بلاغة الاستعارة في لفظ (صَبَّ):

نزولُ العذابِ جاء متتابعًا سريعًا شديدًا

جاء التّعبيرُ بمفردة الصّبِّ في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، وأصلُ الصّبِّ هو إفراغُ ما في الوعاءِ من مائعٍ بشدّةٍ وكثرةٍ واستمرار[1]، فشُبِّه حلولُ العذابِ وإنزالُه بهم بنزول المتتابع المتدارك، وبقوّة إحاطته بهم بصبِّ الماءِ على المغتسِل، أو كما يُصَبُّ المطرُ على الأرضِ، فوَجْهُ الشَّبَهِ مُرَكَّبٌ مِنَ السُّرْعَةِ والكَثْرَةِ والقوّة والتّتابع، بحيثُ يتركُ أثرًا في المصبوب عليه، فإنَّ الصّبَّ مُشعِرٌ بسرعة نزول العذاب عليهم وقوّته في الارتطامِ، كما ينزل الماءُ المصبوب بقوّة وسرعة على المصبوب عليه[2].

دلالة استعمال حرف الاستعلاء:

إحاطة العذاب بهم واستيعابهم لهم

دلَّ التّعبيرُ بحرف الاستعلاء في قولِه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على استيعابهم بالعذاب وإحاطتِه بهم وتمكّنه منهم، فلا يمكنهم الفرارُ منه، فالعذاب صُبَّ عليهم فشملهم جميعًا.

نُكْتَةُ تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل:

قدِّمَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكَ﴾ للإشعار بسرعة الصّبِّ ووصولِه إليهم، وللإيماءِ إلى أنَّهم كانوا هم المقصودين بصبِّ العذاب، وللتّنفير من مسلكهم المؤدّي إلى نهايتهم.

نُكْتَةُ التّعبير بعنوان الرّبوبيّة:

التّعريضُ بالمُكذّبين بإنزال العذابِ لنصرة سيّد المرسلين

لمّا كان الكلام في بيان نزول العذابِ على المكذّبين، الدّالِّ على سخَط اللّه تعالى عليهم، كان الظّاهر أن يُذكَر الاسم الجليل (اللّه)، لكنَّ النّظم آثَر التّعبير بعنوان الرّبوبيّة في قولِه تعالى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 155، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 256.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 473، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾؛ للإشعارِ بولايةِ اللّه تعالى لرسله ﷺ، ولنبيِّه ﷺ ونصرتِه له وعنايتِه به، وأنَّه مؤيِّدُه على عدوّه، ففيه تعريضٌ بالمُكذّبين به ﷺ، بأنَّه سيصيبُهم مثلُ ما أصابَ المَذكورينَ من العذابِ إن استمرّوا على التّكذيب[1]، وفيه حثٌّ على الإسراعِ إلى الإيمانِ؛ لئلّا يلقى المُكذّبون مصيرَ هؤلاء القومِ.

دلالة إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

في إضافة وصفِ الرّبوبيَّة إلى ضمير النّبيِّ ﷺ على وجه الخطاب في قولِه: ﴿رَبُّكَ﴾ تشريفٌ لنبيّه ﷺ وتكريمٌ له، لِما تُفيده الإضافةُ من معنى التّخصيص، ففي الإضافة إشعارٌ بخَصوصيَّة إحسانِه تعالى له ﷺ. وتقدَّم مثلُه في قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

إكـرام النّـبـيّ وتشريفُه عنوانٌ لازمٌ لأهـل التّقوى والمتابعة

بلاغة الاستعارة في استعمال مفردة ﴿سَوْطَ﴾:

شبَّه النّظمُ الكريم إيقاعَ العذابِ على السّابقين بالسَّوطِ، وهو آلةُ ضَربٍ تُتَّخَذُ من جلودٍ مَضفورةٍ تُضرَبُ بها الخَيلُ للتَّأديب، ولِتَحملَها على المزيدِ في الجَري، فيحتمل قولُه: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أن يكون استعارةً تصريحيَّة؛ ونُكْتَة ذلك ما في الضَّربِ بالسّوط من مناسبةٍ للصّبِّ في تواترِه وتكرّره على المضروب، والتفافِه عليه وشدّة إيلامِه له وإحساسِه به حتَّى يهلكَه[2]، وهذا هو ظاهر الاستعارة.

العذابُ المصبوب على المُكذّبين يُناسبُه التّشبيهُ بالسّوط النّازل على البهائم

أو يكون التّعبيرُ بالسّوطِ استعارةً لِما خُلِطَ لهم من أنواع العذاب، فأصلُ السّوطِ هو الخَلطُ، أي: خلطُ الشّيءِ بعضِه ببعض[3]، فالسّوط يُسمّى سوطًا؛ لكونه مخلوطَ الطّاقات بعضِها ببعض، وإنَّما سُمّيَ به الجِلدُ المضفورُ الذي يُضرَبُ بهِ؛ لكونِه مخلوطَ الطّاقاتِ بعضِها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 156.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/ 478، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 473، والقنوجيّ، فتح البيان: 15/ 226.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوط).

ببعضٍ، أي: فصبَّ على المُكذّبين أنواعًا مختلطةً من العذاب في الدّنيا، فنزلَ على عادٍ ريحٌ صرصرٌ عاتيَةٌ، ونزل على ثمود الصّيحةُ، وعلى فرعونَ الإغراق[1]؛ ففيه تخويفٌ وتهديدٌ للمُكذّبين بأنَّه قد يأتيهم عذابٌ من نوعٍ آخر؛ لتنوّع العذاب على المُكذّبين.

نُكْتَة إفراد لفظ ﴿سَوْطَ﴾:

ما صبّه الله على المُكذبين سوطٌ من أسواط الآخرة

أُفرد لفظ ﴿سَوْطَ﴾؛ لبيان أنَّ ما أحلَّه الله بالمُعذّبين في الدّنيا من العذابِ العظيمِ، إذا ما قيس بما أُعِدَّ لَهُمْ في الآخِرَةِ من العذابِ، كالسَّوْطِ إذا قيسَ إلى السّيف، أي: إلى سائرِ ما يُعَذَّبُ بهِ[2]، فالمقصود: أنَّ العذابَ النّازلَ بهم مع أنَّه عذاب عظيمٌ، هو قليلٌ بالنّسبةِ إلى عذاب الآخرة في كميَّتِه ونوعِه، ففيه ترهيبٌ شديد من عذاب الآخرة، وكان الحَسَن رحمه الله إذا أتى على هذه الآية قال: "إنَّ عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذَهم بسَوط منها"[3].

نوع الإضافة ودلالتُها البلاغيّة:

احتمال الإضافة أن تكون بمعنى الجُزء والملابسة والتّشبيه البليغ

الإضافة في قولِه تعالى: ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ بمعنى (مِن)، أي: فصَبَّ عليهم ربُّك سوطًا من عذابٍ؛ للإشعارِ بأنَّ ما أصابَ المكذّبين الطّاغين من الأقوام المذكورين هو نوعٌ قليلٌ من جنسِ العذاب، أي: هو قليلٌ بالنّسبة إلى غيرِه لكنَّه في ذاتِه وحقيقتِه عظيمٌ أليم. وتحتمل أن تكون الإضافة بمعنى الملابسة، أي: سوطًا مخالطًا للعذاب وملابسًا له، فيكون السّوطُ بمعنى العذاب، "فهَذِهِ كلمة تقولها العرب لكلِّ نوع من العذاب، تُدخل فيهِ السّوط"[4]، أي: جعل سوطَه الذي ضربَ به هو العذابَ[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 255.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 311.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 748، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 154.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 261.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 322.

وتحتمل الإضافة أن تكون من إضافة الصّفة إلى الموصوف، وأصلُ الكلام: فصبَّ عليهم ربُّك عذابَ سوطٍ، أي: عذابًا كالسّوط فيكون تشبيهًا بليغًا[1]، من قبيلِ تشبيه المعقول بالمحسوس، تقريبًا للمعنى في أذهانِ المخاطَبين الذين يعرفون السّوط ويستعملونه في حياتِهم.

نُكْتَة تنكير لفظ ﴿عَذَابٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ لتفخيم العذاب وتهويلِه[2]، فهو ليس كمثلِ العذاب الذي يعرفُه النّاس، وأُخذت دلالة التّهويل والتّفخيم من السّياق.

بلاغة استعمال مفردة ﴿عَذَابٍ﴾ دون (عقاب):

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ العذاب في قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، دون لفظ (عقاب)؛ وذلك لأنَّ المقصود هو تعذيب الأقوام تعذيبًا في الدّنيا، لا معاقبتُهم على ذنوبهم، فذاكَ سيكون في الآخرة، كما أنَّ لفظ ﴿عَذَابٍ﴾ مناسبٌ للفظ ﴿سَوْطَ﴾، فإنَّ للسّوطِ عَذَبةً في آخره، ومنه قيل للعذاب عذابٌ لارتباطه بها، والسّوط "كلمة تقولها العربُ لكلِّ نوعٍ من العذاب، تُدخل فيهِ السّوط"[3].

مناسبة اللّفظ القرآنيّ للسّياق والواقع

موقع جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ بين التّعليل وجواب القَسَم:

جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ لصَبِّ سوطِ العذاب على المُكذّبين[4]، وهذا على تقدير جواب القَسَم؛ فصُدِّرت بحرف ﴿إِنَّ﴾ المشتمل على معنى الرّبط والتّعليل لِما قبلَها، أي: إنّما عذّبهم بما عذّبهم به؛ لأنَّه تعالى بالمِرصاد لا يفوتُه شيءٌ، وفي التّعليل إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يظلِمهم فيما أنزل بهم من العذاب.

ومجيءُ الجملة تذييليَّة لِما تُفيده من معنى العموم والكُلّيَّة، بمعنى

سنّةُ الله ماضيةٌ في تعذيب المُكذبين وتنبيه الغافلين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 256.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 261.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 427.

أنَّه تعالى لا يفوته شيءٌ من أعمالِ العِباد، ويدخل فيه أعمالُ الجُناة دخولًا أوّليًّا بقرينة أنَّ السّياق سياقُ تهديد ووعيد، أي: إنَّ الله بالمِرصادِ لكلِّ طاغٍ مُفسدٍ.

وأمّا على جَعْل هذه الجملة جوابَ القَسَم المتقدّم ذِكْرُه في مطلع السّورة[1]، فيكون ما بينهما جملٌ اعتراضيَّة، وعلى كونِها جوابَ قَسَم تكون كنايةً عن تسليط العذاب على المشركين، وأنَّهم سيصيبُهم مثلُ ما أصاب السّابقين، ومناسبةُ مجيء الجُمَل الاعتراضيَّة بين القَسَم وجوابِه أن تكون بمثابة الاستدلال بالواقع على وقوع جوابِ الشّرط، وذلك بذِكر النّظير، والجملة صالحةٌ لأن تكون تعليلًا لِما قبلها، أو نتيجةً له، وهو أسلوبٌ من أساليب الاحتجاج، إذ يُجعَلُ البيانُ والنّظيرُ بمنزلة المُقدِّمة والتّمهيد، ويُجعلُ الغرضُ المقصود بمنزلة العِلَّة والنّتيجة إذا كان الكلامُ صالحًا للاعتبارين، مع قَصْدِ الاهتمامِ بالمُقَدَّم والمبادرة به[2].

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّدات:

أُكِّدَت جملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ بثلاثة تأكيدات؛ ﴿إِنَّ﴾ واللّام ومجيء الجملة اسميَّةً، فالخبر على هذا إنكاريٌّ، وفائدة تتابع ثلاثةِ تأكيدات؛ الإيذانُ بأنَّ المُكذّبين منكرون لكونِه تعالى بالمِرصاد لهم لتكذيبهم رسلَه، بما يُنبئُ به استمرارُهم على طغيانِهم وعتوُّهم وتمرّدُهم، حتَّى أكثروا في البلاد الفسادَ، فلو لم يكونوا منكرين لرصدِ الله تعالى لهم لَما طغَوا، ولَما أكثروا في البلاد الفسادَ، أو أنَّ الجُناة لمّا استمرّوا في غيِّهم وطغيانِهم أُقيموا مقامَ مَن يُنكر رصدَ الله تعالى لهم، وحفظَه لأعمالِهم، ومحاسبتَه لهم عليها.

معاندة الظّالمين واستمرارُهم في الطّغيان إنكارٌ صريحٌ لنُزول العذاب

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 23/ 507، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 3592.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 322.

نُكْتَة تكرارِ عنوانِ الرّبوبيّة:

بـيـانُ كـرامـةِ رسـولِ الله ﷺ وشرفِه عندَ ربِّه

كُرِّرَ وصفُ الرّبوبيَّة المضافِ إلى ضمير المخاطَب وهو رسول الله ﷺ؛ لتقرير عناية الله تعالى به وتأكيد نصرِه له، وأنَّ مُكذِّبيه لن يفوتوا، فهو تعالى لهم بالمِرصاد، ففي تكرار ﴿رَبَّكَ﴾ تسليةٌ لرسولِه ﷺ، وكأنَّه تعالى يقول: إنّما أنا بالمِرصاد لأعدائِك لأجلِك وتطييبًا لخاطرِك، فلا تحزن لكُفرِهم وتكذيبِهم لك.

معنى تعريف لفظِ (المِرْصادِ):

لا محيدَ عن وقوفِ العِباد بين يدي الله تعالى

تعريف لفظ (المِرْصادِ) للجِنس، أي: جنسِ المِرصاد، وهو مكان التّرصّد والانتظار، والتّرقّبِ لِما يُتوقَّع وصولُه، كانتظار شخصٍ يُتوقَّع وصولُه، أو لِما يُتيقَّن ظهورُه ووصولُه كما في تَرقُّبِ الهلال.

والمرادُ هنا ما يُتيقَّن وصولُه من النّاس؛ لأنَّه لا محيدَ عن وقوف العِباد بين يدي الله تعالى.

دلالة حذف متعلّق ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾:

كلُّ طاغٍ فهو في رَصَد الله تعالى ورقابتِه

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ محذوفَ المتعلَّقِ أفادَ العمومَ، بمعنى: أنَّه تعالى بالمِرصاد لكلِّ فاعلٍ ولكلِّ عبدٍ من العبادِ[1]، ويدخل فيه الجُناةُ دخولًا أوّليًّا بقرينة السّياق كما تقدَّم.

ويحتمل أنْ يكون المتعلَّق مختصًّا بمن يفعل السّيّئات، بقرينة أنَّ عبارة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ إنّما تُقال لمن يفعل القبيحَ ويستمرُّ عليه؛ لأنَّ الرَّصَد إنّما يكون على سبيل انتظار المعتدّي وترقّب وصولِه لمجازاتِه على عدوانِه، فالمعنى: إنَّ ربَّك بالمِرصاد لمَن يفعل السّيّئات، وأمّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

بلاغة الكناية بالاستعارة التّمثيليّة:

في قوله تعالى: ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة؛ حيثُ شُبِّه كونُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 323.

تعالى حافظًا لأعمال العباد وحركاتِهم، مراقبًا عليها، ومجازيًا على ما دقَّ وجلَّ منها، بحيثُ لا ينجو منه أحدٌ، بحال من قعد على الطّريق مُترصّدًا العَدوَّ أو الجاني ليَظفرَ به ويأخذَه، فيوقِعَ به ما يريد، ثمّ أُطلِق لفظُ أحدِهما على الآخر على طريقة الاستعارة التّمثيليّة[1]، وهذا تمثيل لحفظِ أعمال العصاةِ وإرصادِه لهم بالعقاب وأنَّهم لا يفوتونه[2]، أو يقال في الاستعارة التّمثيليَّة: شبَّه الهيئةَ المنتزعةَ من كونِه تعالى حافظًا لأعمال العباد مجازيًا عليها، بحيثُ لا محيص عنها بالهيئة المأخوذة من القاعد على الطّريق مترصِّدًا منتظرًا مترقّبًا لمن يسلكُها من أصحاب الجِناية؛ ليأخذَه ويفعلَ به ما يستحقُّ لأجلِ جنايتِه، ففيه توضيحُ المعقولِ بالمَحْسوس[3].

بيان الرّقابة الرّبانيّة للطّغاة بالمحسوس أرسخُ في تثبيت الوعيد والتّهديد

وهذا التّمثيل كنايةٌ عن مجازاة كلِّ عاملٍ بما عملَه وما يعمله، إذ لا يُقصَدُ الرّصدُ إلّا للجزاء على العُدوانِ[4]، والاستعارة على معنى التّهديد والوعيد للجناة والمُكذّبين لرسول الله ﷺ، كما تقول لغيرك: افعل ما شئت فطريقُكَ عليَّ لا محالةَ، أي: لا تفوتني[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّخْر والحَجَر:

الصّخْرُ: هو الحجر الصّلب العظيم الثّابت، الذي يتعذّر حملُه وثقبه عند عموم النّاس.

الحجر دون الصخر، وهو جزء منه

وأمّا الحَجَر: فهو أصغر من الصَّخْر، وهو جُزء منه، ويمكن رفعه باليد، ويجمع على أحجار.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 425، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 442.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 310، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 257.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 323.

(5) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 15/ 338، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 294.

الجَوْب والقَطْع:

الجَوْب فيه ثقبٌ وخرقٌ على ترتيب معيَّن، والقَطْع فصلٌ بين شيئين

الجَوْب: هو قطع الشّيء على وفق تفصيلٍ معيَّن وترتيب مقصود، بحيثُ يكون فيه خرقٌ وثقبٌ، فيكون على سبيل النّحت، ومنه الجَوبُ وهو القميص الذي تلبَسُه المرأةُ، فيكون مفصَّلا عليها، ومنه كذلك جَيْبُ القميص والدّرع الذي يكون مقطوعًا على وفقِ منفذ الرّأس[1]، ففي الجَوْبِ ثقبٌ وخَرقٌ على ترتيب معيَّن؛ ليكون على وفقِ المقصود.

وأمّا القَطْعُ: فهو بمعنى فصلِ الشّيء عن الشّيء وإبانتِه منه[2]. وليس فيه خرقٌ ولا ثقبٌ في المقطوع.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"